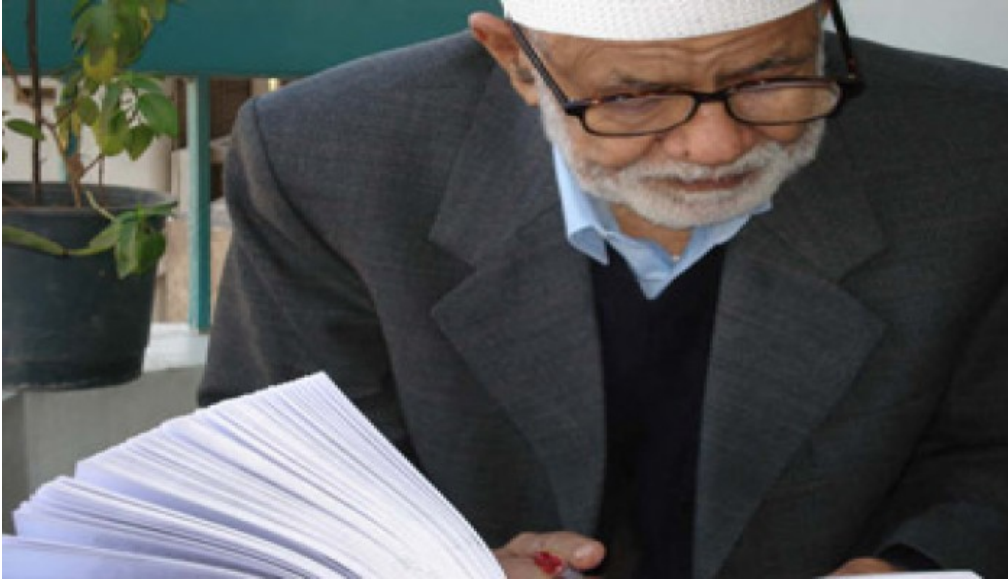


د. عبد العظيم المطعني يكتب: الإمام الشهيد حسن البنا ودعوة لن تموت



الأربعاء 15 فبراير 2012 12:03 م

لم يستطع الغرب أن يبتلع بلاد الشرق الإسلامي عن طريق الحروب الصليبية التي باءت بالفشل، ولم ينصرف الغرب عن التفكير في الشرق بعد فشل تلك الحروب، فحلت مساعي الاستعمار الحديث المسلحة محل تلك الحروب، وخرجت قوافل التبشير إلى ربوع آسيا ومجاهل أفريقيا يساندها تعصب حاقد على الإسلام والمسلمين، ووضعت الخطط السرية لصرف المسلمين عن دينهم ووضعت بإزائها الاعتمادات المالية السخية للإنفاق عليها حتى تبلغ مرادها، فأصبح الإسلام والمسلمون بين فكي كماشة: صراع عسكري يدك المعافل ويحطم الحصون.. وصراع فكري ينتزع الإسلام من القلوب انتزاعًا أو يشوه صورته في نفوس بنيها!

قد تعرّض الشرق الإسلامي لأحداث عنيفة أطاحت بالكثير من معالم حضارته؛ فحروب أو غزوات التتار والمغول التي انتهت بسقوط بغداد ثم الحروب الصليبية ثم تأمر دول أوروبا على دول الخلافة وإسدال الستار على سياسة الباب العالي "الرجل المريض" وتقسيم ميراثه بينهم، وتقسيم الأقطار الإسلامية إلى دويلات، كل هذه أحداث حركت المشاعر وأيقظت الهمم في كل مكان، وقد انضم إليها سبب مشابه داخل الأقطار الإسلامية نفسها، وهو تخلف المسلمين وبعدهم عن دينهم وتفككهم في وقتٍ كان ينبغي أن يكونوا على مستوى الأحداث المحيطة بهم لمقاومتها ورأب ما أحدثته وتحدثه من صدوع؟!!

وكان من رد الفعل أن ظهرت حركات الإصلاح في مواقع متعددة من البلاد الإسلامية، فقامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المعروفة بالحركة الوهابية، وكانت ثورةً على البدع المستحدثة في الدين ومحاولة لتنقية الدين مما علق به من شوائب، وكان مسرحها شبه الجزيرة العربية، وقامت الثورة المهدية في جنوب وادي النيل، وكانت تهدف إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي في إطار التوجهات الدينية التي حاول الاستعمار طمسها وتشويهها.

وفي شمال غرب إفريقيا قامت الحركة "السنوسية" لكنها كانت تركز على التربية الروحية النزعة الصوفية أكثر من اهتمامها بمشكلات الحياة.

وقام الشيخ جمال الدين الأفغاني بدعوته المعروفة حول إنشاء الجامعة الإسلامية، ولكن مطلبه كان عزيز المنال؛ لأنه مطلب سياسي يقل من يستجيب له من السادة الكبار.

والتف حول هؤلاء تلاميذ لهم اتجهوا إلى المنهج الأكاديمي في الدعوة، وظلت قطاعات الشباب في كل مكان تنتظر من ينفث فيها روح القوة، ويلمس بنوجيهه شعاف قلوبهم، وقد ادخرت العناية الإلهية لهذه المهمة الجليلة الإمام الشيخ حسن البنا، الذي أصبح شعلة لم تنطفئ رغم محاولات الحاقدين من عملاء الاستعمار وأعداء الإسلام محليين ومستوردين.

**شباب يدعو الشباب إلى الإسلام:**

بدأ الإمام الشهيد دعوة الشباب إلى التمسك بالدين في وقتٍ مبكرٍ من عمره إذ كان في الثانية والعشرين منه بعد تخرجه في دار العلوم بعام واحد، وشاب في هذه السن المبكرة يضطلع بهذه المهمة الجليلة، فهو شاب نشأ في طاعة ربه وعبادته ولم تعرف حياته "البكرة" لهو الشباب وعينهم، وإلا بدأ دعوته في مرحلة متأخرة قطعاً.

اتجه الإمام الشهيد- إذن- إلى إصلاح عقيدة الشباب وفكره فأنشأ أول دار للإخوان المسلمين بالإسماعيلية، فكانت القطرة التي انهمر منها الغيث وعم القمم والسهول، وباشر دعوته بعقل ناضج وأسلوب واضح.

منذ عام 1928م، كانت دعوته من أول عهدها شعبية، فيمم الشباب وجوههم شطرها، وسرعان ما خرجت من مدينة الإسماعيلية إلى كل أنحاء العالم ثم انتقلت إلى الأقطار الإسلامية والعربية في سرعة البرق ورقة النسيم.

وقد وهب الله الإمام الشهيد البيان الواضح والأسلوب الحكيم إلى ما عمرت به شخصيته من أدب النفس واستقامة السلوك وفقهه بمقاصد الإسلام، وحفظه للقرآن الكريم والوقوف على أسرارهِ ومعانيهِ، وروايته للحديث، وإلمامه بعبر التاريخ وفهمه لسيرة أصحاب الرسول- صلى الله عليه وسلم-، ومعرفته بمواطن الضعف في الأمة، وبهذا قد استكمل الإمام الشهيد كل مقومات الداعية المؤثر، والمصلح المطاع.

كان يعرف إلام يدعو؟ وكيف يدعو؟ ومن يدعو؟ ومتى يدعو؟ بقلب شجاع وسلوك طيب، ولسان فصيح، وحجة ساطعة، فلا غرابة أن يلتفت الشباب كله في عزمٍ وثباتٍ حول ذلك المصلح المخلص.

### إلام كان يدعو الإمام الشهيد؟

كان الإمام متيقناً وليس مبتدعاً، والاتباع هو منهج كل مصلح صادق، أما الابتداع فإنه مسلك كل دجال كاذب، كان الإمام متيقناً، ولأنه اتخذ من التمسك بالدين طريقاً للإصلاح، وفي هذا يقول "دعوتنا إسلامية بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ فافهم ما شئت، وأنت في فهمك هذا مفيد بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة السلف الصالحين من المسلمين، فأما كتاب الله فهو أساس الإسلام ودعامته، وأما سنة رسوله فهي مبينة الكتاب وشارحته، وأما سيرة السلف الصالح فهم رضوان الله عليهم منغذو أوامره، وهم الصورة المائلة والعملية لهذه الأوامر والتعاليم، وكان هدف الإمام من تلك الدعوة أن يُعيد الشباب المسلم إلى الإسلام الصحيح بجلاء مفاهيمه، وإيضاح مراميه، فالإسلام منهج حياة بكل ما تنسج له كلمة "الحياة" من معانٍ فهو عقيدة وشريعة، ودنيا وآخرة، بيان وفكر وجهاد ونضال قد ويبع النشاط البشري كله، لكل مسألٍ فيه حكم وتوجيه، ولكل مشكلٍ حل، هو مع المسلم أينما حلَّ في صحوه ونومه، في معلمه ومصنعه، وفي محرابه ومصلاه، في أكله وشربه، هو معه في كل شئونه، وكل محاولة للإصلاح لم تتخذ من إسلام زادها وعدتها باءت بالفشل، ولا سبيلٌ للإصلاح شئونها إلا بالعودة للإسلام"، ولهذا فإنه يطالب بالخطوات الآتية:

- 1- إصلاح القوانين: وهذا يكون بموافقة القوانين لأصول الفقه الإسلامي.
- 2- إصلاح مظاهر الاجتماع: وهذا يكون بموافقة السلوك لمبادئ الدين الحنيف.
- 3- محاربة الإباحية: وهي تتحقق بقمع الشهوات والتخلي بالفضائل.
- 4- تنظيم التعليم: بحيث يهدف التعليم إلى حماية العقيدة واستقامة الخلق.
- 5- المؤاخاة بين المسلمين: بحيث يكون المسلمون رجلاً واحداً وقلباً واحداً وبدناً واحدةً، وكونوا عباد الله إخواناً.

### قيمة هذه الدعوة

جاءت دعوة الأستاذ الإمام رد فعل هام للأحداث الخطيرة التي تجمعت آثارها في مطلع العشرين، فقد نشطت الأصوات التي كانت تنادي بترك الحجاب وتدعو إلى سفور المرأة، ونشطت الأفلام التي كانت تدعو إلى القضاء على اللغة العربية الفصحى لتحل العامية محلها، بل وتطالب بأن تكون الكتابة بالحروف اللاتينية لتحل محل الحروف العربية، وأخذ من يسمون أنفسهم "أنصار المرأة" ينادون بالاختلاط بين الرجال والنساء في كل مكان بحجة تحرير المرأة كما فعلت المرأة الأوروبية، وتعرضت مبادئ الإسلام نفسه للإهمال فترك العمل بكتاب الله وشريعته في الحكم ودور القضاء والنبابة، وحلت محلها القوانين الوضعية، وصار الربا مصدرًا من مصادر الكسب لدى الجماعات والأفراد، ونشط عملاء الاستعمار في توجيه الطعنات للإسلام في الصميم، فقبيل قيام الأستاذ الإمام بدعوته الشجاعة بعامين أصدر الدكتور طه حسين كتابه "في الشعر الجاهلي"، وقد طعن في صدق القرآن الكريم، وقال إنَّ وُرد قصة إبراهيم وإسماعيل في القرآن ليس بديلٍ كافٍ على وجودهما التاريخي، كما شبه القرآن بقصائد أمية ابن أبي الصلت الشاعر الجاهلي وبرئ الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه ذلك من دينه وعقيدته، وأخذ يُدرّس تلك السموم التي احتوى عليها كتابه للشباب في الجامعة المصرية الناشئة.

هذه النزعات الخطيرة لو لم تقم في وجهها دعوة صلبة تؤمن بالحق وتدود عنه، وقد تمثلت تلك الدعوة في جهود الإمام الشهيد، لانترعت الإيمان من قلوب الناس انتزاعًا وخاصة الشباب، ومن هنا تكتسب دعوة الإمام البنا قيمتها.

ولم يأبه أنصارها مما أصابهم في سبيلها من أذى، والتاريخ على هذا خير شاهد، قيام بالحق، ودود عن الدين وحراسة لقيمه في إباء وشمم، وما زالت دعوته تؤتي ثمارها، ولا تزال حتى ينصر الله حزبه وجنده وخذ الله هم الغالبون.

### سر بقائها واستمرارها:

تجاوزت دعوة الإمام البنا الخمسين عامًا تعمل بجد وإخلاص لنصرة الإسلام عقيدةً وشرعيةً، وهي قوة وصلابة لم يلحقها تغيير ولا تبديل في مبادئها الأصيلة التي عُرفت بها من إنشائها، ولم يُزهد أنصارها فيها أنهم تعرضوا لضربات غاشمة ثلاث كرات استشهادًا واعتقالًا وسجنًا واضطهادًا وتعذيبًا ورميًا لهم بالإرهاب والوحشية، بل إنهم كانوا يخرجون من كل محنة وهم أصلب عودًا وأثبت قدمًا، حتى أصبحت حركة الإخوان أكبر حركة إسلامية في العصر الحديث وأبقى أثرًا، فهل لذلك ولهذا السبب؟ نعم:

أما ثباتها واستمرارها فلأنها دعوة قامت على الحق والحق ثابت لا يتغير، فمبادئ الإسلام هي منذ أقرها عليه الصلاة والسلام، وكل دعوة تعتمد على مبادئ الإسلام لا ينالها تغيير ولا تبديل، أما النظم الأخرى عُرضة للخطأ، ولهذا فإن الخمسين عامًا هذه قد تبدلت فيها أحوالٌ وتغيرت.. فكم من المذاهب قامت ثم سقطت وحلت محلها اتجاهات أخرى مرات ومرات في كل بلدٍ من بلدان العالم المعاصر، بل إن مصر نفسها- موطن الدعوة- قد مرّت بكثيرٍ من التجارب الفكرية والسياسية خلال هذه المدة، ويُقرّر اليوم منهج ثم يأتي الغد فيُلغى ويُبحث عن بديل له، بل إن عهد الثورة المصرية الأخيرة قد عرف حتى اليوم اتجاهات عدة وما لنا نرى سلوكًا يحل محل سلوك، نستقبل الجديد بالثناء والأمل ونودع القديم بالذم ونرميه بالقصور.

وأما التفاف الشباب حولها في عزمٍ وثبات فيفسره لنا العلامة ابن خلدون في مقدمته؛ حيث يقول: إن العرب لا يجتمعون إلا حول قيادة دينية ولا ينتصرون إلا بقيادة دينية، وقد صدق التاريخ هذه القاعدة فقبائل العرب المتفرقة المتناحرة صنع منها الإسلام بقيادة محمد- صلى الله عليه وسلم- خير أمة أخرجت للناس دكت عروش كسرى فارس وقيصر الروم وملأت الأرض عدلًا ونورًا، وصالح الدين الأيوبي حينما تمسك بالإسلام وخذ صفوف العرب والمسلمين جميعًا، فكانت كل المنابر في العالم الإسلامي تدعو له مخلصًا بالنصر، ويؤمن المصلون في صوتٍ هادر قائلين آمين.

ذلك هو الطريق فهل نحن سالكوه؟.. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)﴾ (النور) "صدق الله العظيم".

\* مجلة "الدعوة" العدد الثاني والعشرون السنة السابعة والعشرون غرة ربيع الثاني 1398هـ- مارس 1978م.

<https://www.ikhwanonline.com/article/101334>